حتى تتبدى الملامح

بقلم الشيخ : نور الدين قره علي

يتساءل البعض ، إما متحيرا ، أو يتساءل تارة أخرى محبطا ، ويقول : لقد طال أمد الثـورة ، ومـضى عـام متكامل ، وبدأنا في العام الثاني مثقلين بأعباء التضحيات ، ننوء بأثقال الأحداث السابقات ، وجراحنـا تـزداد في الأعماق مع أنفاس ما نعانيه من آلام النكبات ،

ويتطارح الجميع كلما انعقدت بهم المجالس ، عما تخبئه الأيام من أحداث ، وعما ستؤول إليه الأمور التي يزداد تعقيدها في كل يوم ، فقد انكشف أمر الدول الكبرى وطريقتها المزدوجة ، بين كلمات معسولة ومواقف مهزولـة ، كلمات ترضي بها شعوبها ، ومواقف تدير من خلالها مصالحها ،

كما تبين للقاصي والداني ما أثمرته جهود المؤسسات الدولية ، والتكتلات العربية ، وحركات دول الجـوار ، ولعلنا جميعا يتابع بقراءاته تحليلات الصحافة ، وكتابات المفكرين ، وتقديرات الإعلاميين ، ويسمع مواعظ المصلحين ، وكلمات المربين ، وكل يدلي بدلوه من خلال ما يراه ، ويعطي من نتائج أقواله ما أوصله إليه اجتهاده ، وما راوده في يقظته ورقاده ،

ولعل الإنسان إذا ما أراد أن يدلي بدلوه مع هؤلاء جميعا ، ويقدم رؤيته مركزا على اسباب التـأخر ، وطبيعـة التحير ، وضبابة الرؤية والتبصر ، وخاصة عندما يطرح موضوع المقارنة ، بين ثورة بلادنا سورية ، والثورات الـتي سبقتها وماثلتها في المنطلق والرؤية والأهداف ، فهذه تونس بتسارع أحداثها ، وروعة إنجازها ، وتلك مصر ، ومثلها اليمن ، واضحة الصورة لكل متأمل ، نرى أحداثها تتوالى بانتظام ، متجهة نحو الهدف ، تحقق ما تصبو إليه بخطوات متئدة ، دون أن ننسى ما يتطلبه ذلك من بذل الجهود وتحمل الأعباء والمصابرة على ذلك كله ،

ويعود الإنسان بعد ذلك ليقول : ان ما يجري في الثورة السورية يبدو وكأنه شيء مختلـف ، فالنظـام يبـدو متماسكا ، والحليف معه يبدو معاندا ، وها هو الغرب يغض طرفه ، وأمريكا تراوغ بمواقفها ، ولنـا في التعليقـات المتداولة ما يغني عن ذكرها هنا حول ما يحدث من إعراض أو تناس لآلامنا ، أو مراوغة في التعاطي مع قضية شعبنا ، أو في التأييد المبطن لإجرام العصابة التي تنكل بنا ،

فلماذا يا ترى ؟! ....

ولعل الإجابة تكمن كما يبدو لي في أمر جوهري ـ والله تعالى أعلم ـ وهو أن الثورة في سورية هي ثورة كل الشعب ، وقد فرضت نفسها بهذا المعنى من بداية الأمر ، ولازالت تؤكد هذا ، وأكدته طوال العام السابق ، وثـورة الشعب الواحد هي مشكلة المشاكل لدى الآخرين ، هي مشكلة لم يجدها هؤلاء في تونس ، ومـصر أو الـيمن ، و ذلك من زاوية أن الشعب في تونس لم يبق على عمومه ، بل مثلته وبسرعة وجوه محددة ، سواء كان وجها إسلاميا من طرف أو وجها ليبراليا من طرف آخر ، وهذا كفيل بأن يمكّن الساسة في العالم ، والـذين يعملـون لتحقيـق مصالحهم ، من المسارعة لإيجاد السيناريو الملائم لما يعرفونه من هذه الوجوه ، ويجدون الحلول سريعا ، لوضوح سيرة من يتعاملون معه ، ولمعرفة اسلوبه وطريقته ، وخطوط التفاهمات الإيجابية والممكنة لالتقاء تلكم المـصالح ، وإيجـاد المشترك فيما بينها ،

وكذلكم حدث في مصر..، فقد توضح وبسرعة تاريخية ، خدمها الزمان السابق ، والتحركات التنظيمية الـتي حفرت في الأحداث معالمها مسبقا ، مما جعل ثورة الشعب بعمومها توضح شيئا فشيئا خصوصية روادهـا ، وتـبين للجميع ذلكم الوجه الذي تبدت ملامحه واضحة من خلال حركتها ، فظهرت جماعة الأخوان المسلمون كرائـدة ، وكحركة تستوعب الثورة في تنظيماتها ، مما سهل على القوى العالمية والمحلية إيجاد السناريو المناسب للتعامل معهـا ، لأن مثل هذا التعامل لا تخفى وسائله ، وإيجاد المشترك بين المصالح في تلكم المؤسسات ، وبالتالي كان من السهل فتح الدروب وتجاوز المراحل ، وإيجاد حلول لكل المشكلات تقريبا ،

وكذلك في اليمن ، فإن القوى المتصدرة بين كل الأطراف كانت واضحة المعالم من قبـل ، وتحركـت دون اختلاط للالوان ، واستطاعت قوى المصالح أن تجد الأسلوب المناسب لحل المشكلات بطريقة أو بأخرى ، نتيجة هذا التميز الذي يعتبر هو بالذات سر إيجاد الحلول واختيار أفضل السيناريوهات ،

أما في سورية وحتى الآن ، فإننا نرى أن الثورة التي عمت الشعب بأسره حدثت بعد أربعين أو خمسين عاما من غيبوبة القوى السياسية والقيادية المؤثرة ، ولقد تحير الجميع ، ولا يزال يتحير في أمر هذه القوة التي حركت الجماهير كقيادة لا كمؤثر ، وصار الجميع على يقين ، بأنه لا توجد على الإطلاق فئة أو أشخاص ، سابقة أو لاحقة تـدعي لنفسها أي تأثير في بعث هذه الثورة ، في الوقت الذي انبعثت فيه ، أو الشكل الذي اتخذته للتعبير عن نفـسها ، أو الطرائق التي لا زالت تتخذها لتحقيق أهدافها ،

وإنّ تحير الغرب والشرق ، والدول الحليفة والمجاورة ، قد اربكها هذا الأمر ، فجهلها وتحيرها في تحديد ملامح وجه القيادة لهذا الشعب ، يضعها في إشكالية اختيار الطريقة المناسبة للتعامل ، ومن ثم يجعلها ترتبك في التـصريحات والوعود ، وهذا ما كنا نلحظه لدى الجميع ،

وما طول المدة التي نعيش ، وعدم وضوح المخرج لدى كل القوى ، وإشـغال الزمـان والمكـان والـسكان بمؤتمرات ، وحوارات ، ولقاءات مكوكية لا تعرف مرتكزا ، ولا تسمع إلا جعجعة ، ولم تورث الجميع إلا إحباطا ، لهو دليل على هذا التحير ، بسبب عدم ظهور ملامح قيادة تحدد سرعة الحل بإيجاد الطرقة المناسبة ، تلتقي بها المصالح دون اهتزاز ، وترتكز إليها الحلول بدون تردد ،

ولعلنا في الفترة الأخيرة ، وبعد انتظام أمر المجلس الوطني زمنيا ، وبعد قيام الجيش الحر قيادة ، وبعض الكتائـب إنجازا ، نلاحظ بأن عملية تتم بين هذا وذاك ، لتكوين ملامح وجوه القيادة المستقبلية لهذه الثورة ، كضرورة تمليهـا أساليب التعامل الدولية والمحلية ، وأنه بدأ ينشأ نوع من الصراع أو التمايز والاختلاف في هذه المؤسسات ، وما تضم من فئات وعينات ، والتي تحاول كل منها إيجاد تكتلات تظهر ملامح فئة دون أخرى ، أو تدفع لإظهار هذه الملامح من قبل جماعات قريبة أو بعيدة ، مخلصة أو مخربة ،

وإننا إذا اكدنا على ضرورة إيجاد هذه الملامح ، والتي صارت مطلوبة لغالبية الأمة ، وهي ترنو وبإلحاح لإبـراز هذه القيادة من هذه الثورة ، وأن تتبدى شخصيتها في قمة الريادة لحركتها ، وان ترى رايتها مرفوعة مـن خـلال مجلسها وجيشها الحر وهيئاتها الاجتماعية المدنية ،

إننا إذا كنا نطمح لذلك لصالح الثورة وجهادها ، فإنه في الوقت نفسه نخشى على هذه الثورة ، أن يتزاحم على منصب قيادتها وجوه ترتاح لها الدول الغربية والمحلية من ناحية تحقيق مصالحها ، أكثر من أن تحقق هـذه الوجـوه مصالح الثورة ومتطلباتها بدقة التعامل مع هذه القوى ،

إن العالم ينتظر وجها واضحا للثورة يمكن فهم طريقة التعامل معه وفق المشترك ، ولكن لا ننسى بأنـه يعمـل وبكل جهد أن يكون هذا الوجه أضعف من قوة الشعب الثائر ، ولا يمثل قوة زمجرة هذه الأمة ، والذي قلب كـثيرا من أعراف وتقاليد هذا العالم ،

إن القوى المناوئة يهمها أن يتسلق إلى القيادة وأن يتمركز بها وجوه تعود بالأمة إلى خنادق التراجع وسـاحات التملق والاحتواز ، أو إلى حفر الفئويات واستبداد التجمعات ،

نعم إن طول الزمن لم يكن لعدم القدرة على الحل ، بل لعدم وجود ملامح قيادة تمد يدها مـع هـذه القـوى للمشاركة في هذا الحل ،

هذا هو الذي لا زال وحتى اليوم وباتفاق الجميع هو المفتقد ، وهو الذي نشم رائحة التحرك نحوه من عديد من الجهات والتجمعات ، وهو الذي يحدث نوعا من الخلافات تتبدى بين حين وآخر ،

وإلى أن تبدو ملامح هذا الوجه الممثل لثورة الأمة ، سواء كان للتعبير عنها ، أو لاختطافها ، أو لتقزيمها ـ لا سمح الله ـ ، إلى ذلك الوقت سنبقى ننتظر ،

أما الحلول الخوارقية فلا شان لنا بالحديث عنها ، ونتركها لأهلها ...